

تمهيد

القراءة في حياة الداعية

كان نشيد الداعية الأثير هو :

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء عندي أعز من العلم فما أبتغى سواه أنيسا
إنما الذل في مخاطبة الناس فدعهم .. وعش عزيزا رئيسا
وقد عاش عزيزا فعلا .. متحملا مسؤولية ما به عزته وإن كان باهظا فقال:
[كنت أمشي حافيا في حر الهواجر :

لا أجد دابة أركبها . وكنت أحمل كتبي على ظهري] .
ولقد كان مما يعده هو المغالاة بما هو فيه .. في مواجهة أهل الدنيا :
وذلك قوله : (إذا كان مجدا لتاجر في كيسه .. فإن مجد العالم في كراريسه)
وإذ يحرص أهل الدنيا على ما يملكون من حطامها .. فقد كان حرصه على كتبه
التي هي ثروته .

بقوله : [كنت في طريقى إلى أصفهان . فأخذنى المطر ليلا . ومعى كتبي ولم
أكن تحت سقف ، فتفكرت في كتبي !!؟
فخشيت عليها البلل .

فانكببت عليها . حتى أصبحت .. وهذا المطر [!

وهكذا الكتاب في حياتك :

يعلمك إذا جهلت ويرشدك إذا ضللت ويسليك إذا أردت ويؤنس وحدتك ويزيل
وحشتك ويغسل عنك ، يحدثك بكل لغة ويكشف لك عن كل سر ويجلو لك كل
غامض ، ويعلل لك كل حادث ، ويعرفك بأحداث كل أزمة تفتح به كل أمر مغلق

وتتناجى معه في كل موضوع وتخترق بمعونته كل أفق ، وتعرف عن طريقه كل مجهول ، به تعلو شأبا وتعظم قدرا ، إنه أكرم ما فى الوجود طبيعة ، وأنفسها قيمة وأوسعها صدرا .

إنه يرفع الأحساب الوضيعة ويحقق الآمال البعيدة والرغائب الجليلة إنه يؤنس فى الوحشة ويسلى فى الغربة ، به تكتسب مالا وتزيد جمالا .

هل عرفت الآن هذا الصديق العظيم ؟

إنه الكتاب خير جليس فى الزمان ، إنه روح الحضارة وسجلها ، إنه ديوان المدنية ومصدرها ، إنه ينبوع العلم ومحاربه ، لا علم بغير كتاب ، ولا قيمة لامرئ أو شعب بغير علم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: ١٦] .

الديانات التى لا ينتظم للعالم بدونها أمن أو سلام ، ولا تطيب للناس حياة إلا فى ظلها ، تلك الديانات قد جاء بها الرسل ثم فارقوا دنيانا ، وبقي الكتاب أمينا على رسالتهم يصونها ويبلغها ويجعل من أجل ذلك قداسة الأنبياء والمرسلين .

المذياع والتليفزيون والبرق والمسرة والسيارة والطيارة والصاروخ ونحوها ، أليست كلها ثمرة من ثمرات العلم حمل بذورها الكتاب وظلت ترويه العقول جيلا بعد جيل ، ويسجل الكتاب نموها طورا بعد طور ، وما زالت تلك البذور تنمو فى رعاية الكتاب .

وإليكم بعض ما قيل فى الكتابة والكتاب :

قال دزرائيلى : انتق الكاتب الذي تقرأ له بنفس العناية التى تنتقى بها أصدقائك .

وقال شكسبير : مداد الكاتب مقدس مثل دم الشهيد .

وقال أناتول فرانس : « إن الكاتب يكون فى بعض الأحيان ملهما خصوصا فى

اللحظات التى يكون حديث دائرا فيها عن شخصه » .

وقال أعرابي : « الكتاب صناعة شريفة تجلس الحقير مجالس الملوك وهى آلة

قانونية تحملها آلة جسمانية تضعف بالترك وتقوى بالإدمان .

وقال ابن المقفع : « الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك »

وقال الجاحظ : « لم أر مثل طريقة الكتاب فإنهم اختاروا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا ساقطا سوقيا » .

وقال أعرابي : « كل صناعة تحتاج إلى ذكاء إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءين جمع المعاني بالقلب والحروف بالقلم »

وقال آخر : « لو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة »
وقال عباس العقاد : « في كل كاتب شيء من طبيعة النبوة لأنه يحمل رسالة ،
« خاصة » من لدن الحياة إلى إخوانه في الحياة ولهذا كان لابد للكاتب من هبة خارقة
يحس بها ما لا يحسه سواد الناس ويفهم بها ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا
وعجائب الغيب والشهادة »

وقال جبران خليل جبران : « من نقب وبحث ثم كتب فهو ربيع كاتب ومن رأى
ووصف فهو نصف كاتب ومن شعر وأبلغ الناس شعوره فهو الكاتب كله »
وقالت كاترين تينان : « لو كانت الكتابة خمرا لكنت أكبر عريضة على سطح
الأرض ، فلا يمكنني أن أمتنع عنها ، لأنها ملأت حياتي بالسعادة والحيوية »
وقالت جاذبية صدقي : « إن الكتابة متعة كبيرة ولكن ثمنها غال . . . كرات
الأعصاب الحمراء » .

وقال كلثون : « للكتابة ثلاث مصائب : إن تكتب شيئا يستحق النشر ، وإن تجد
رجالا أمناء ينشرونه لك ، وإن تجد القارئ اللبيب غير المتحيز »

وقال مصطفى أمين : « أنا أعتبر الكتابة كالتنفس »

ثم ماذا ؟

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ومن الشهوات
التي اتبعوها :

مجالس اللهو .. والزهد في القراءة .

إلى الحد الذي صار فيه العربي يقرأ نصف كتاب في العام .. بينما الغربي يقرأ ثمانية وأربعين كتابا .. كما أشارت إحصائية اليونسكو هذا العام ٢٠٠٥ - ومعنى ذلك :

تراجع الأمة في مضمار التحضر .. بعدما نضبت رغبتها في القراءة ، فتخلت عن مكان الصدارة .

كما يقرر ذلك أحد الباحثين الغياري على أمتهم والذي يقول :

القراءة دلالة بارزة على المجتمع المتحضر حيث يقول الفيلسوف الفرنسي فولتير : «يقود الأمم هؤلاء الذين يقرؤون ويكتبون» ، ويقول العقاد : « القراءة تضيف إلى عمر الإنسان أعمارا أخرى وفي أعمار الكتاب والمفكرين الذين يقرأ لهم » .

واشترى الفيروز أبادي صاحب « القاموس المحيط » كتباً بخمسين ألف مثقال من ذهب وكان لا يسافر إلا وبصحبه منها عدة أحمال ومن شدة حبه للكتب علق أحدهم لافتة في بيته كتب عليها : ألا يا مستعير الكتب إليك عنى ، فإن إعارتي للكتاب عار ، فمحبوبي في الدنيا كتاب ، وهل أبصرت محبوبا يعار ؟

وفي أمريكا ظهرت أخيراً فكرة «الأسبوع القومي للانصراف عن مشاهدة التلفزيون ، وأسأله لماذا يهتم العرب بالخرافات والجن ولا يهتمون بالقراءة والعلم ، بينما ينشغل الغرب بالبحث العلمي وعلوم الفضاء والفيمتوثانية ؟

ولقد حاولت البحث عن تفسير لهذا القصور .. فتبين لى :

١- أن الوضع الاقتصادي له دخل كبير في هذا التراجع .

٢- وأن سرعة الحياة لم تترك للاجئين فرصة الاسترخاء الوداعة في صحبة كتاب .

٣- وأن النفس الملول مصروفة عن قراءة الكتاب الطويلة والتي تعالج موضوعا واحدا .

ومن أجل ذلك :

كانت هذه الأفكار القصيرة . . والتي يمكن - ومع مرور الأيام - أن تنشئ في النفوس عادة القراءة من خلال التنقل من فن إلى فن . وبلا معاناة . . إلى جانب كونها . . قد تكون . . «خميرة» لحديث أو خطبة أوسع مدى . .
والله وحده المسؤول أن يبلغنا المأمول .

د. محمود محمد عمارة